

كان من الممكن أن يكون هناك نظم للتعليم العربي حسب الحاجة دون الإضرار بالتعليم الإنكليزي، ولكن هؤلاء الأكابر لم يهاجموا العلوم العربية في نفسها، والسبب في ذلك ربما أن دراسة العلوم العربية (وكما يبين السيد الراديكالي) لا تخلق في الفطرة الحرية والشجاعة والحقيقة أن هؤلاء مرتبطون بالعلوم العربية.

لكن السيد الراديكالي نتاج التعليم الحديث لذلك تقدّم بكل حرية وشجاعة وكشف الستار عن السرّ بأن العلوم العربية ليست من الأهمية بمكان حتى يصرف الوقت على تعلمها، وبعضاً من الفقرات من مقالته كما يلي:

- إننا نختلف مع الرأي القائل بأنه توجد في العربية علوم تنير العقل وتجلي القلب وتطهر الأفكار وترفع العزائم وتخلق الاستقلال في الفطرة.
- وكما نفهم بأن العرب كانوا دائماً جهلة ووحوشاً نصيبهم من التمدن والحضارة قليل، لذلك فإن وجود خزائن رائعة من العلوم والفنون في لغتهم أمر مستبعد (آمنّا وصدّقنا)
- في الحالة التي يستشهد فيها سبط الرسول عطشان في كربلاء، تنتف لحى الصحابة ويرمى في المسجد النبوي روث الخيول، كيف يمكن في هذه الحالة تدوين العلوم وتطويرها.
- مجموعة أشعار الجاهلية لا تشتمل إلا على قصص الحروب الداخلية بين العرب وإسالة الدماء أو مدح ووصف العنق الطويل للناقة وعود النخيل الشائك. ولا نجد في ذلك موضوعاً علمياً.
- ماذا يوجد في كلام الزمن الماضي غير مدح الخلفاء المترفين وعشيقاتهم ذوات الوجوه الجميلة ووصف للخمر والملحقات. وماذا يستفاد من قراءة هذا الشعر المشين والتافه إلا فساد الأخلاق؟

- يقال إن العرب تفوّقوا في علم التاريخ، إن هذه التواريخ ترجمت معظمها بإضافة حواش ومقدمات رائعة إلى اللغات الأوروبية وقراءتها أكثر فائدة من الكتب العربية الأصلية بكثير.

هذه كانت مقتبسات من مقالات السيد الراديكالي.

الأمر الأول الذي تجب ملاحظته هو أنه هل كان من الضروري أن يناقش السيد الراديكالي قضية إحياء العلوم العربية من هذه الناحية.

نسأل السيد الراديكالي وجميع معارضي العربية أنه إذا اعترفنا بأن العربية تحتوي على ذخائر علمية جيدة فهل كانوا يبيحون تعليمها، فقد قدّم السيد مارسين خطة تعليم العلم الحديث (Science) مع العربية، فهل وافق معارضو العربية على ذلك؟ هل العلوم أيضًا لا تستحق الالتفات إليها مثل العربية؟ والأمر الملحوظ هل يدرس أصحاب الجماعة الحديثة العلم لكونه علمًا؟ هل سنجد أي شخص في ساحة الكلية إذا لم يكن التعليم الإنكليزي وسيلة للوظائف الحكومية وهل تجد الذخائر العلمية للغة الإنكليزية لديهم قبولًا حتى بعد التخرج من الكلية.

إن كانت الحالة هذه فكان كافيًا أن يقال لإنكار خطة إحياء العربية بأن هدف حياتنا وتعليمنا هو الحصول على الوظيفة الحكومية ولا يمكن ذلك بالعلوم العربية. وكان هذا استدلالًا صائبًا لا يمكن لأحد إنكاره.

وإن كان السيد الراديكالي يهدف إلى التنقيص من شأن العلوم العربية وتحقيرها فكان عليه أن يختار لذلك عنوانًا مستقلًا وهذا لا يرتبط بقضية إحياء العلوم العربية.

من المحتمل أن السيد الراديكالي اعتقد أنه إذا ثبتت أهمية العلوم العربية فمن الممكن أن يتوجه إليها بعض الطلاب ولكننا نطمئن بأن الفرق الجديد فريق بعيد النظر وعملي وقد حدّد مساره ولا يمكن أن ينخدع بأن يتعلم العلم كونه علمًا.

والآن نتوجه إلى جمل السيد الراديكالي والتي سترأها بالنسبة للعلوم العربية.

ولكننا حائرون ماذا نتخذ من طريقة للاستدلال لمواجهتها؟ فإن علماء أوربا الماهرين بالعربية والذين يعتبرون أصحاب الحق في الفصل في هذه القضية مثل البروفيسور سيديو والبروفيسور لبيان والبروفيسور رينان والبروفيسور مونك (المؤلف الفرنسي المعروف) والبروفيسور براؤن هنري لويس والبروفيسور زخاؤ (عالم العربية الألماني المعروف) وغيرهم يعتبرهم السيد الراديكالي بأنهم لا يمدحون العربية إلا بهدف تضليل المسلمين وعدم إيقاظهم من سباتهم وإذا قدّمنا أمثلة للكمال العلمي واختراعات المسلمين فإن المشكلة أن السيد الراديكالي لا يعرف العربية، وأما حاله في علم التاريخ فيظهر من قوله "لم يرتب القرآن إلى زمن الخليفة الأول والثاني".

إن حجر الأساس لاستدلال السيد الراديكالي هو "أن العرب شعب وحشي ولذلك من المستحيل وجود ذخيرة علمية في لغتهم" وإذا استسلمنا بكون العرب وحوشًا فذلك لا يؤيد الدعوى التي قدّمها، الأشخاص الذين جاءوا بالذخائر العلمية في العربية كانوا عجمًا، مثل الفارابي وابن سينا والرازي والغزالي والطوسي وقطب الدين الشيرازي وغيرهم. ولا أعتقد أن السيد الراديكالي سيلقب هؤلاء العجم بالوحشيين.

ألقى السيد رينان الذي يشتهر بكونه متعصبًا ضد الإسلام محاضرة في الأكاديمية الفرنسية وكان موضوعها "لا يمكن الجمع بين الإسلام والعلم".

اضطر في هذه المحاضرة إلى ذكر التحقيقات العلمية والفلسفية للمسلمين قال "نعم، الفلسفة موجودة في العربية ولكنها ليست عند العرب".

ولو أن رينان أنكر معرفة العرب بالفلسفة إلا أنه لم يستطع الإنكار أن العربية هي مخزن الفلسفة لكن السيد الراديكالي لا يؤيد وجود ذخيرة العلوم والفنون في العربية.

يقول السيد الراديكالي أنه لا يوجد لدى العرب أي ذخيرة تذكر في النثر، أما النظم فحاله أن نظم الجاهلية يقتصر على وصف العنق الطويل للناقة ووصف العشيقات ذوات الوجوه الجميلة في عصر الإسلام" وهذا القول يشبه قول الشيوخ القدامى عن أوربا وعلومها وفنونها بأن هؤلاء لا يعرفون شيئًا إلا أن يصنعوا بعض الآلات مثل الحدادين والنجارين أو يقوموا ببعض القطع والتبش مثل الجراحين" يا للأسف:

ولقد رضيت عن الذي تبديده لي      فلقد علمت بأنك لا تميزن

كان من الممكن أن يكون هناك جانب ضعيف لتحقيق العرب في الفلسفة والعلوم والفنون لكن إنكار فصاحة العرب وبلاغتهم وشعرهم وعلمهم باللغة مثل من ينكر النور للشمس. إن حقيقة فن الشعر تعني وصف مناظر الطبيعة والعواطف الإنسانية بحيث تؤثر على القلوب كحالة أصلية لا توجد إلا في أشعار العرب، وكل شخص من بادية العرب كان يملك القدرة أن يؤثر بقوة كلامه على الجماعات ويوجهها حيث شاء. كان خلفاء بني أمية يحكمون في دمشق بكل شأن وأبهة لكنهم كانوا يرسلون أولادهم إلى البادية فقط لكي يتعلموا أسلوب الخطابة القوي واللغة السليمة بين سكان البادية، كل شعر من أشعار العرب كان يبعث الحماسة في الشعر، ولا يمكن لخطاب غليد استون أو بريك اليوم أن يؤثر كما استطاعت قصيدة واحدة لعمر بن كلثوم أن تحافظ على أصل الشرف والنبل لآلاف السنين في بني تغلب ولذلك كانت هذه القصيدة يحفظها كل طفل في القبيلة وأحد أشعارها:

إذا بلغ الفطام لنا صبي      تخزله الجبار ساجدينا

وافتخر العرب بأنما كانوا يقولونه في أشعارهم كان صدقاً ويفتخر العرب بأن مدح شخص يعتبر عاراً وخجلاً وعندما بدأ المدح في العصر اللاحق كان من اللازم أن لا يقال إلا الصديق والصواب، فعندما طلب ملك من شاعر أن يمدحه، قال له بكل وضوح "افعل حتى أقول". وبعدما كافأ هرم بن سنان زهير بن أبي سلمى على قصيدة كان من عادة زهير إذا حصر المجلس أن يقول: عموا صباحاً غير هرم، وخيركم استثنيت" يعني أن السلام على الملك يعتبر تملقاً ولا يليق بشاعر العرب.

من المؤسف أن السيد الراديكالي وأصحابه لا يعرفون العربية، وإلا كان باستطاعتنا أن نريهم نماذج رفيعة المستوى من الشعر العربي والتي لا مثيل لها، من من شعوب آسيا يستطيع أن يصف مناظر الطبيعة مثل المراعي والجبال والأنهار والغابات وحرارة الصيف وبرودة الشتاء والأمطار والغيوم أو المشاعر الإنسانية مثل الحزن والألم والغضب والشدة والفخر والحماس والشجاعة والجرأة والذوق والحب غيرها مثلما فعل العرب؟